عدد خاص / والأدب في المغرب العربي

الأقلام

مجلة فصلية عامة تصدرها وزارة الاعلام - بغداد

العدد التاسع * السنة الثانية عشرة * حزيران ١٩٧٧

خافته كانت النقرة على الباب .

ومن عادتي الا آمر بالدخول ، فالذين يتقرون باب مكتبي يعرفون اني لا امانع في دخولهم ، والذين يعرفون اني قد امانع لا يتقرون الباب . والغلب ما تطرق الباب يد قوية تستطيع ان تستلفني من اوراقي فارفع رأسي مستفهما . ولكن النقرة هذه المرة كانت خافتة على استحياء ، لم اهتم لها ، او هي لم تستطع ان تلفت نظري ، فتعاديت في العمل تخلصت اليد الناعمة من استحيائها فعادت تنقر الباب باكثر قوة ولكنها مع ذلك ظلت خافتة لم يتردد لها صدى ضعيف في ارجاء المكتب .

رفعت عيني — وبهما شوق الى الاستمرار في تجاوب كامل مع القلم والورق — نحو الباب لتنظران . ظل الباب في هدوئه لا يريم . سرعان ما تخلصت من فضولي فعدت الى اوراقي ، لكن الطرقة الثالثة كانت اقوى ، ولم ارفع عيني حتى كان الباب ينفتح على استحياء . اطل وجه سبوح لم اتبين منه غير عينين خضراوين او هما زرقاوان ، او لعلهما قرنا من الخضرة والزرقة واستقرتا في نصف الطريق .

كان صوتها هو الاخر خافتا مستعطفا :

— اتأذن لي بالدخول ... ؟

وهل يسعني الا ان اقول :

— تفضلي ...

كانت خطواتها بين الباب والمكتب لا تتفق في شيء مع نقراتها الخجيبة وراء الباب المغلق . وملابسها الصيفية مختارة بدقة . الوان كنارية تجلل القميص والسروال ، وفي عينيها وشعرها وبشرتها بعض من هذه الالوان .

— اعتذر جئت على غير موعد ...

توقفت عن الكلام وهي تمد يدها مخيبة . مددت يدي وعلى ملامحي كثير من علامات الاستفهام . اخذت عيناها تبحثان — لعلهما — عن كرسي خلف المكتب . وكان علي ان اشير اليها بالجلوس ، فقد كان هناك كرسي ينتظر كل زائر . وطالما هممت برفع هذا الكرسي كما فعل زميل لي حتى لا اغري الزائرين بالراحة . فغالبا ما تكون راحتهم هذه على حساب عملي ولا اقول راحتي . العمل ينتظر ، وسأعود اليه بعد ان ينهوا زيارتهم ، والكرسي ولو يغري بطول الزيارة ، ولذلك فهي معادلة غير سليمة ...

لم تمهلني لابادر بالسؤال ، ولا هي اضاعت الوقت فيما يضيعه الغرباء او الاصدقاء كلما التقوا ، ولكنها اتجهت الي كما لو كانت تعلي من حفظ .

— لعلك لا تصرفني ...

ولم تتوقف ، فقد كان من الطبيعي ان اجيب بان الشرف لم يحصل من قبل ، وانما استعرت :

— ... اسمي سليمى من عائلة الليلي ، لعلك تعرف العائلة ... آه عمي الحاج التهامي ، وابي كان اسمه عبدالله ... انت لا تعرفه ، مات وانا صغيرة ، اخواني من عائلة الناظوري الحاج عبدالرحمن ...

وبدات اضيق ذرعا بهذا التعريف الطويل . لست ضابط الحالة المدنية حتى اتطلب كل هذه المعلومات ... ولم اكن اسجل ، وانما انظر اليها نظرة حياد ، لاأطلب المزيد ، ولا استطيع ان اصدمها ، فاتحول بها الى الهدف من زيارة على غير موعد .

كان يودي ان اواجهها بهذا الذي افكر فيه .ولكنها اكتفت بذلك لتقول على الفور :

— جئت اليك لان عندي قصة لم اجد غير صحفي اخصه لها ...

وكصحفي كنت ما ازال ضيق الصدر بهذه الحكايات ، قلست من نوع الصحفيين الذين يجرون

واخرجها

وراء قصص الحياة والناس . ولكن شخصية الكاتب انتفضت في لتدافع عن حقها فوجدتني ارهف السمع ولو اني ما زلت ضائقا بقصة قد يطول بي سماعها . ولعلها لاحظت ارتياحا مازج ملامحي ، فاضافت :

كان من الممكن ان احكيها لاخرين ، ولكن هذه مهمة الصحافة ، ومن يستمع الي وانا الضحية ... ؟

وتطلعت الى وجه الضحية ابحث عن اثر الجريمة كان وجها ينبض بالحياة والعافية ، جميلا على قدر ما يكون وجه شابة لم تتجاوز الثلاثين الا بقليل ، جميلة . خصلات من شعر ندت عن المحابس والثقاف كسنابل قمح في ربيع حياته ، ذهبية بنية شقراء ، لكنها تظلل الوجه القمحي بهالة من فتنة .. لم اجد ظلا ليؤس ولا اثرا للجريمة . بدات اهتم بحديثها . فكلمة الضحية كانت سبيلها الى ان تجتذب

من الجنة

عبد الكريم غلاب

اهتمامي . ولعل نظرة الحياد التي تجلت على وجهي منذ قابلتها اختفت لتحل محلها نظرة اهتمام بهذا الحدث الذي سعى الى بطرق مكتبي على غير موعد وبيد من كانت الضحية .

ـ انا طالبة في الجامعة ...

وبدأت الكلمات الفرنسية تأخذ طريقها الى المعجم الذي تتحدث به .

ـ اعذرني اذا تحدثت بالفرنسية ، فهناك أفكار ومواقف تخونني الكلمة العربية فيها ... هكذا علمونا ...

ـ لا بأس تكلمي بأية لغة تشائين ...

فلتها لاجنبها الحرج والشعور بالنقص ـ فيما يدالي ـ فانا لا أحب ان نجتمع على كلمة غير سواء. أشعر بحاجز يفصلني عن مخاطبي كلما استعمل لغة اجنبية عنا معا ، ولكني اضعف أمام شاب او شابة تسبقها لغة أجنبية الى لسانها وهي تعتذر : هكذا علمونا ...

حاولت مع ذلك ان لا تستعمل الكلمة الفرنسية الا عندما تعجزها الكلمة العربية وانطلقت :

ـ في الجامعة أكمل ثقافتي . مسؤولية الحياة لا ترحم . والمرأة اليوم كالرجل تشعر بالمسؤولية وتقدرها . قد يكون ذلك على غير ارادة منها ، ولكنها الحياة تدفع بها لتتحمل مسؤوليتها . ولن تستطيع ذلك بغير تعليم جامعي ...

وبدأت مرة أخرى أضيق بهذا الدرس الاجتماعي فلعلني في غير حاجة لان ألقاه من سيدة طرقت باب مكتبي لتقص قصتها .

ـ انا آذن في غير حاجة ... اعمل وادرس في نفس الوقت وسيمكنني بعد حين أن أعيش

كما يعيش الذين يحملون شهادة جامعية في استقلال كامل عن اي كان يرغب في اعالتي ، او يستغل حريتي لانني في حاجة الى ماله .

ما تزال تلقى الدروس الاجتماعية ، ولكن لا حيلة لي في ان اوجه الحديث وجهة اخرى ، فقد قبلت منذ البداية ان استمع الى قصتها ، واستغلت هذا الحق في ان تتحدث كما تشاء . وكانت كلمة « الضحية » هي التي عقلت لساني من ان يتدخل ليختصر المقابلة او يوجه الحديث .

ـ ... ثم انني أم لطفلين اعمل جاهدة على ان اسعدهما ...

طالبة .. ام لطفلين .. تتحمل مسؤولية الحياة بشجاعة ... ضحية ... مجموعة خطوط رسمت امام ناظري لوحة تشكيلية « سوريالية » على وجه بنيض بالشباب والحيوية والجمال ، ربما كانت سن صاحبته لا تتفق مع كل هذه المسؤوليات . اقف امام كثير من اللوحات لا احاول ان افهمها عقليا ، ولكني اعجب بها مهما تكن غير واضحة ، لان الطبيعة نفسها غير واضحة،وقد لا تكون مفهومة . وبدأ بالفعل الغموض يرتسم على اللوحة الجميلة ، وبدات اجد صعوبة في ان اكتشف اسرار ما وراء الاصباغ والالوان . وكما يحدث عندما اقف امام لوحة من الفن الجديد يستعصي علي ادراك اسرارها انهم ذوقي ، ان تواضعت فلم انهم فهمي ، ومع ذلك اجاري الذين يقفون معجبين فاطيل النظر ، وقد يكونون هم ايضا غير فاهمين ولا متذوقين ، ولكنهم امام ظاهرة الحداثة لا يستطيعون ان يعلنوا انهم لم يتذوقوا ولم يفهموا فيجارون الاخرين . ومع السيدة سليمى لم اكن انهم لشدة الغموض . ولكن الحياة الان اشد غموضا من قصتها . وذلك نوع من الافراد دفع بي الى الصبر وطول الاناة وانا استمع :

ـ ... كنت متزوجة من قبل .. لم تكن على اتفاق ... انجبنا طفلين ... افترقنا بهدوء ... اخذ كل منا طريقه .. تلك قصة اخرى غير مهمة ...

وكنت احسب انها بدات قصتها وان لغز الضحية اتضح ، فهي سيدة شابة تزوجت زواجا فاشلا انمر طفلين ... تلك قصة حقيقية ... مأساة لا تكاد تخلو منها كثير من البيوت . ولكنها غير مهمة في نظرها ، لانها قصة عادية ... وكان علي ان انتظر قصة اخرى انا الذي تزعجني قصص هذا الزواج المثمر غير الناجح . وانا الذي تنتظرني على المكتب كثير من المشاكل كل منها قصة تتطلب الحل . وما يزال هذا المكتب يحتمل فخلفه تحكي سيدة شجاعة في تحمل المسؤوليات قصتها :

ـ اعيش لهذين الطفلين ، واستطيع ان اعيلهما بعملي وبما ترك لي والدي ، الى ان يستقر وضعي بعد الحصول على شهادتي الجامعية . قدرت شجاعتها . فقد كانت المرأة وما تزال تعتبر مشكلة الحياة اعقد ما يواجه في حياتها لانها اعتمدت منذ الازل على ان يعيلها رجل ، ولو كانت هي عضوه الابمن كما يحدث في العائلة الفلاحية التي تنتج فيها المرأة اكثر مما ينتج الرجل ، ولكنها دائما في ظله لانه الرجل .

ولم يبد على محياي انني مندهش لشجاعتها . فما ازال اقف محايدا رغم هذه البراعة التي اظهرتها في حكاية قصة كان ـ فيما الفت من قصص الاخرين ـ يمكن ان تحكى في لحظات .

ـ ... انا لا اخشى الحياة . انت تعرف الشابة الجامعية التي مرت بمراحل الدراسة ولم تتوقف عن المدرسة رغم ما يحيط بها من اغراء شابة و ... جميلة ، ولا اكتمك اني ذكية .. وابتسمت ابتسامة بريئة فلعله قد بدا لها انها بالغت في اطراء نفسها حيث لم يطلب منها احد ذلك ، حتى ولاظروف المنافسة او الافتخار واستدركت :

ـ لا اقول هذا لافاخر ، ولكن لاؤكد لك ان مثل هذه الشروط تغري الرجل بالمرأة ، وتغري الزوجة بان تتلهى بنفسها اعتمادا على رصيدها ولكني احببت ان اعلم . فعصرنا عصر المساواة ، والمرأة التي لا تجد في عضدها ثقافتها لن يحترمها زوجها ، لان شباب اليوم ـ انت تعرف ذلك ـ لم تعد المرأة عندهم لعبة او دمية ، مهما تكن جميلة ، يقضون معها اوقات فراغهم و ...

ترددت قليلا وخفضت عينيها لحظة وهي تضيف:

ـ ... ومتعهم .

ولعلها كانت تنتظر مني تعليقا ، او على الاقل شهادة ، لله ، بما اطرت به نفسها من جمال وذكاء . ولكني ظللت محايدا رغم ان ما كان بي من ضيق قد زايلني . فقد اخذت اتتبع حديثها بشيء من الفضول ، ولو ان عنصر القصة اختفى منه او كاد .

ـ ... المرأة اليوم كالرجل تحرز استقلالها الفكري والانساني والمادي ثم يمكنها ان تتزوج لتتعايش مع الرجل تعايشا سلميا ...

قالتها بالفرنسية فكلمتنا التعايش السلمي فيما يظهر لا تلفظان بغير الفرنسية . ووجدتني اضطر الى الخروج عن حيادي السلبي،واذا كان لابد من حيادفليكن على الاقل ايجابيا . قلت شبه اعتراض :

ـ لعل ما بين الرجل والمرأة ـ اقصد الزوج والزوجة ـ اكثر من التعايش السلمي . هناك الجانب العاطفي واكثر من العاطفي ، فالله خلق لنا من انفسنا ازواجا لنسكن اليها وجعل بيننا مودة ورحمة ...

فتحت عينيها على ابعادهما ، وكأنها لم تسمع بالفكرة قط . كانت تترجم العلاقة بينهما بالتعايش السلمي . ولها من التجارب ما اعطاها مثالا عن فقدان السلمية لم فقدان التعايش . وكان الجدل من طبيعتها فاعترضت :

ـ ... كل يتحدث عن تجاربه . والتجربة هي منطلقي الفكري ، ولعلي لم اجرب كلمة السكن هذه : اسكن اليه او يسكن الي ؟

وانت حركة تضافرت كل ملامحها : عيناها ، حاجباها ، فمها ، كتفاها لتجيب بالنفي . وتحركت فيها غريزة الدفاع :

ـ لا تظن اني مادية ، ولكني واقعية . لم يسكن الي ، ولم اسكن اليه . وانما كنا في وضعية تعايش سلمي . فلما انتهى ما بيننا من تعايش انتهى ايضا سلميا . وبذلك حققت معنى الاستقلال الذي كنت انشده ، كما كنت احققه ونحن متعايشان .

كان منطقها سليما اكثر منه جريئا . ولكن سلامة المنطق ، الذي كان صوريا اكثر منه واقعيا ، لم تمنعني من ان اضرب على وتر حسبت له نغمة ذات وقع في نفسها يمكن ان تغير رايها ، وانا ممن يؤمنون ان المرأة تستطيع ان تغير رايها في لحظة ، قلت :

ـ ولكن التعايش السلمي كان مثمرا ...

انطلقت بذكاء لتجيب على الفور :

ـ طفلان ... ؟ اليس كذلك ؟ يعيشان معي في سعادة ، لا اتركهما يشعران بان التعايش السلمي انتهى اجله ... يتعلمان في المدرسة ويجدان من رعايتي ما لم يكونا يجدان من رعاية ...

وسكتت قليلا وهي متحفزة بحركاتها ، وعيناها تائهتان في الشعاع الذي ينبعث من لون السجادة الحمراء واردفت وكأنما تتحدث بحركات كتفيها وعضلات وجهها:

ـ لم اكن اومن بأن حنان المرأة هو الحنان ، لاني كنت انفر من الانانية ، ولكن التجربة علمتني ان الرجل ...

ساد صمت كأنما شيء اوقف كلماتها المنفجرة . وحملقت في وجهي لتستشف ما قد يكون ارتسم على محياي من غضب . ولكني ، فيما بدا لي ، لم اكترث ، فنفس التسامح والحياد الذي قابلتها به لاول مرة كانت ملامحي ما تزال تعبر . واحببت ان اقطع حبل الصمت ، ولكني في الواقع كنت اهدف الى تشجيعها على ان تعبر . فما احب ان يتردد راي او يحجم فكر عن ان يعبر عن نفسه لاعتبارات غير فكرية .

قلت وكأني اكمل جملتها :

ـ ... هو الانساني ؟

ـ بكل صراحة : نعم . بكل بساطة ترك طفليه لحناني .

قلت معاكسا :

ـ لان المرأة مستبدة . سلبته موضع الحنان لترضي انانيتها في طفليها من حيث تحسب انها تمتاز عنه بالتضحية .

كان يشق عليها ان تجادل بالمنطق . نظرتها الى الحياة واقعية ، ولا تكتم ذلك شجعتها هذه المناقشة على ان تطرد عنها كل تردد ، شعرت بالاطمئنان وهي تتحدث كما لو كنا نتعارف منذ زمن طويل . اجابت وهي تحاول ان تثري حجتها :

ـ افرض ـ يا استاذ ـ انني كنت من سيدات العصر الماضي ، اكان يمكنني ان ارعى ابنتي ؟ اكان يمكنه ان يتخلى عنهما بعد ان انتهى عهد التعايش ...

اضافت وهي تؤكد على كلماتها :

ـ ... الذي ما احسب انه سيكون سلميا ..؟

وكان علي ان اوضح مابيننا جدلا عن حقائق حتى انها كانت تشعر ـ فيما بدا منها ـ بانها تقوم بتمرين في المحاماة ، ولو انها لم تنه بعد دراستها القانونية .

ـ الانانية ليست مميزات جنس . وانت تعرفين يا سيدتي ان كثيرا من الرجال انانيون وان كثيرا من النساء ...

لم تحتمل . بادرت مقاطعة :

ـ لست على رايك ...

كانها وجدت الفرصة لتؤكد رايها فاضافت على الفور :

ـ ... وقصتي ستعطيك الدليل .... القاطع

ـ قصتها ... ؟

تساءلت مع نفسي فقد خيل الي اني استمعت الى قصتها ، وناقشت معها معطياتها ولم يبق الا ان تقول بلغتها المختلطة : « اورفوار » ... ولكنها ـ فيما يبدو ـ لم تكن بدأت بعد الحديث عن قصتها التي دفعت بها الى مكتبي على غير سابق معرفة ، وعلى غير موعد . خيل الي ، وانا انظر الى كثرة الاوراق والرسائل وانزعج لرنين الهاتف من حين لاخر فيقطع حبل تفكيري وينتزعني من حديثي معها الى حين ، اني سأقضي صباحي ذاك استمع الى قصصها ، فهي راوية قصص وتجارب حياتية لا تخلو من اهمية . وهي مجادلة تحب نفسها قوية الحجة .

ـ اليس من انانية الرجل ان في حياتي قصصا تروى ، وانا بعد في مقتبل العمر . لست جدة ولا عجوزا يطفح راسها بما جربت وما سمعت وما رأت ... لو لم يكن انانيا لما كنت احس بأن في حياتي قصة تروى ؟

قلت محاولا ان اجردها من حماس بدا يأخذ طريقه الى لهجتها في الحديث :

ـ تجاربنا تبدأ منذ ان تفتح عيوننا على نور الحياة . تبدأ قصة الانسان وهو يحاول

جاهدا ان ينطلق من سجنه ـ كجنين ـ الى الافق الاوسع . واعترف ان الانسان يكتسب الموهبة القصصية حينما يعرف كيف يختزن ويحكي ... الا تمارسين كتابة القصة ؟

اجابت وقد ارتسمت على محياها مسحة اعجاب :

ـ لا يا استاذ . لقد اخترت كلية الحقوق لانني لا احب ان اكون مدرسة ولا اديبة ...

ـ اخترت اذن ان تكوني قاضية او محامية .

فوجئت وعيناها تطفحان بالغضب . امتقع لون وجهها ، اختفت سمرتها الممزوجة بشدة . كادت تصرخ لكنها استطاعت ان تمسك بأعصابها امام الحيرة التي انتابتني . قالت :

ـ لا تذكر القضاء والقضاة يا استاذ ...

حاولت أن اهدىء من روعها وانا اغير مجرى الحديث . عدت الى قصة التعايش السلمي . قلت :

ـ لقد كان تعايشا سلميا انتهى بانتهاء قصتكما . انت الان سعيدة ، فيما يبدو ، فلا تذكري الماضي ...

بدا من ملامحها اني لم افهمها بعد . ولعلها اقتنعت باني استمع اليها بنصف اذن ، او افكر في مشكلتها بنصف فكر . اعتدلت في جلستها ، وواجهتني وهي تفتح عينيها على ابعادهما في وجهي كأنما حسبت انهما صلة التفاهم مع هذا الذي يقف من مشاكلها موقف المحايد ... ودت ـ فيما خيل الي ـ ان تقول لي : افهمني يا اخي ... لم ابدأ بعد قصتي :

قالت :

ـ كنت سعيدة حقا ... اعيش في الجنة ... الرجل ـ بكل صراحة ـ تجربة اثبتت من حياتي ... كان تعايشا سلميا وفراقا سلميا. اجتزت فيه التجربة بسلام ... ونجحت . عرفت ما هنالك ، وانتهت المرحلة لاعود الى الحرية : الى الجنة التي نخرج منها عادة بالوفاريد والصلاة على النبي ...

بدت لها لمحة من الاستغراب على وجهي فاضافت:

ـ ... لا تستغرب ان ينتهي الرجل من حياة شابة جميلة ومقبلة على الحياة ... ولكن التجربة اقنعتني بان اشياءكثيرة يمكن ان يتخلى عنها الانسان بشيء من الشجاعة . كثير من الناس يدخنون ، ولكنهم ينفضون ايديهم من الدخان بسهولة ، وكثير من الناس يشربون حتى لتمتزج دماؤهم بالكحول ولكنهم قد يهجرون الكأس ... والى الابد ... الرجل دخينة قد تتمكن من المرأة ... كأس خمر ، قد تخرجها من انطوائها ، من يأسها ، من تفكيرها في الجنس الاخر . ولكن الدخينة تحترق بين اصابعك وتذرو الرياح دخانها في الفضاء ... والكأس تفقد كأسا يمج شرابها حتى المدمن نفسه ـ يستغني الكثيرون عن الدخينة والكأس ولا شيء يتغير في الحياة ... ولا اكتمك اني شجاعة ذات عزيمة قوية .. استغني بسهولة عن الدخينة ، عن الكأس واعيش مع ذلك سيدة ... لا تظن بي تقمصا في الانوثة ، ولكني قادرة على ان اعوض بالفكر ، بالكتاب ، بحب طفلين جميلين ، بحب الحياة التي افتح لها صدري بكل سعته ،بحب الطبيعة . الرجل ليس كل شيء بالنسبة للمرأة ... وهم استطعت ان اتخلص منه ، ويمكن ان تتخلص منه الكثيرات ، لو تخلصن من تحكم العادة ، من تقاليد المجتمع الذي تبدأ فيه العائلة تعد البنت الصغيرة لتكون لعبة في يد الرجل ، وتملأ احلامها الصغيرة بالفارس الذي سيمتلك روحها وجسدها معا ...

خيل الي اني امام ثائرة لا يوحي مظهرها واناقتها بالثورة ، ليست ثائرة شارعية تقود المظاهرة او تخطب في اجتماع الطلبة ، ولكنها ثائرة فكريا تتحدث بالافكار الثورية وتطبقها في الحياة،وبدأت انسى الاوراق ومقاطعة الهاتف ، والعمل الذي يتطلع الي في شوق . استمع اليها باهتمام ، ولكن طبيعة التحدي دفعتني الى القول :

ـ تعاندين الطبيعة بحماسك في وقت انفعال . نحن اثنان . لم تكن قط واحدا . آدم لن يكون لو لم تكن معه حواء ...

ـ قبل ملايين السنين كان ذلك ... الا تؤمن بالتغيير ... ؟

ـ بلى ... ولكن طبيعة الانسان ...

قاطعت دون ان تعير اهتماما الى انها تستعمل بعض العنف :

ـ وحتى طبيعة الانسان . وماذا يفعل التهذيب والاخلاق والتجربة وقوة الارادة . نحن ضحايا الاستمرارية . ولو وقفت حواء ، اية حواء ، في اي عصر كان لتثبت وجودها لامكنها الاستغناء عن المسيرة مع رفيق طريق .

قلت متحديا :

ـ ولو وقف آدم ... اي آدم ...

قاطعت وكأنها تكمل جملتي :

ـ لاختصر المسيرة مع رفيقة طريق قبل ان يختار الطريق والرفيقة .

ساد بيننا صمت عميق لم يقطعه غير هدير السيارات في الشارع يهز احيانا زجاج النافذة . ولكنها كانت مستغرقة في تفكير ، يخيل الي اني كنت انا الاخر مستغرقا في مثل ما تفكر فيه . ولكن فكري اتجه بسرعة الى هذه القصة التي لا ادري اخففت من عبئها أم ما تزال تختزنها .

رفعت اليها عينين مستفهمتين . ولعلها احست

باني اتجه اليها باذني اكثر من اتجه بعيني فاستجابت :
ـ الحياة ما تزال تقتضي بصدق نظريتي ...
ـ هي فلسفة ...
واكتست لهجتي طابع السخرية وانا اضيف :
ـ ربما كانت فلسفة عدمية ...
ثم ازدادت لهجتي سخرية وانا اقول بشيء من الحماس بعد ان صوبت عينين نافذتين الى وجهها :
ـ ... قولي لي ... الست عضوة في الجمعية العالمية للتخطيط العائلي ؟
ادركت بذكائها صدى السخرية . ولكنها لم تحاول ان تدافع ، بل اجابت بسخرية مماثلة :
ـ ... بل عضوة في الجمعية الفلسفية لتصحيح اوضاع الحياة ...
وابتسمت كمحاولة لاطراء بديهيتها الحاضرة . وابتسمت هي الاخرى اعجابا بقدرتها على الرد والمواجهة ثم قالت :
ـ ستقتنع اذا انا قصصت عليك قصتي ...
قلت في مفاجأة :
ـ او ما تزال هناك قصة غير ما سمعت ؟
ظهر على وجهها الاسى الممزوج بالغضب . شيء ما يتحرك داخلها . تعيش قصتها ـ فيما يظهر ـ في كل لحظة . منذ الممارسة كانت ، ربما بطلتها ، او احد ابطالها . مارست المأساة ، ولكنها ما تزال تعيش في اعماق المأساة . كلما وقفت موقف الراوي اصبحت تعاني مخاض الميلاد . ميلاد جديد ملامح وجهها وعيناها تنبئان بذلك . بدا لي انها ستمارس التجربة مرة اخرى لمجرد انها تروي ما مضى . لا اكتم اني اشفقت عليها . وكان يودي ان اعفيها من ان تروي ما حدث لو كنت انا الذي سمعت اليها لتقص علي قصتها ، ولكني لا املك ان اعفيها مما قصدت اليه . كان من الممكن منذ البداية ان اتخلص من تبعات سماع القصة لو اعتذرت لها باني على موعد . ولكني اصبحت احس باني مدين لها ان استمع الى بقية الحديث . قصدتني ، وفي ذهنها عني مجموعة افكار :
ـ طبيب لوضعية نفسية تعاني منها ؟
جالـز
صحفي في امكاني ان اذيع ما يتآمر المجتمع على كتمانه ؟
جالـز
ـ مساعد للخروج من مازق وضعتها فيه ظروف صعبة ؟
جالـز
اكتسى موقفي طابع الاشفاق ، ولو انها فيما بدا من طبيعتها لا تقبل أن تكون موضع اشفاق .
قلت وانا احاول ان ازيح عنها كابوس الاسى والغضب ، احاول ان اساعدها على اجتياز مرحلة المخاض دون ان تحس باني اقصد ذلك :
ـ لا تبتئسي . الحياة كلها قصة . اذا سمعت منك اليوم فصلا منها يمس حياتك فقد احكي لاخرين فصلا يمس حياتي .
احسست بان كلماتي شجعتها ، ربما ازاحت ما تبقى من حجب بينها وبين رجل غريب تحاول ان تأتمنه على سر ، ولكنها مع ذلك ترددت قليلا وكانها تبحث عن البداية ، عن الكلمات ، عن الصياغة . عيناها تترددان بين النافذة والسجادة ، ثم تتلفتان في عصبية الى يديها ، اصابعها ، اظافرها الوردية المصبوغة في حذق ...
رن جرس الهاتف فانصرفت اليه لحظات شاكرا له ان انقذني من تتبع لحظة الحيرة والاضطراب . عدت اليها ، او عادت اليها اذناي ، فعادت الى يمينها وكانها جاءت من بعد :
ـ اين وصلنا ... ؟ كنا في الجنة ؟ اليس كذلك ؟
ولم أبد حراكا . لم اتساءل ولم اعترض فقد عادت الى طبيعة المحايدة ، فهو عالمها تصفه كما تشاء . واضافت :
ـ واخرجني منها على حين غرة .
رغم اني كنت محايدا كنت حريصا على ان افهم ، فقلت :
ـ بعد ان انتهى التعايش السلمي ؟
قالت :
ـ صبرك ، فلعلي مضطربة لا ابين ، ولي العذر في ان اكون مضطربة ، ولكنك ستفهم عني .
ـ قريب مني ، بعيد عني ، عائليا ، يعرفني من بعيد واسمع عنه من بعيد . فوجئت وهو يتقرب الي ، الى العائلة فيزورنا من حين لاخر . وانا لا ارى فيه الا الجانب البعيد ، ولكنه ـ فيما يبدو ـ لم يكن يستغل الا الجانب القريب . كاشفا مرة بعد بنيته ...
عادت الى صمتها كانها تترك لي المجال لكي ادرك الهدف . ولم يكن يخف علي ان سيدة في مثل مركزها الاجتماعي والعائلي والثقافي ستجد من يتقرب الى العائلة ليكشف اخيرا نيته الى الشخص الكبير في العائلة .
ثم خرجت من صمتها :
ـ كدت اجن . فانا في جنة دخلتها عن عمد وسبق اصرار ، مستريحة اليها . دخلتها بعد تجربة لم تكن كلها نارا ، ولكنها مع ذلك اقنعتني بان الجنة هي ماواي الحقيقي ... معي فيها ملكان . ارى فيهما كل سعادتي ، ويربان في كل شيء في حياتهما . لم يكن الخروج منها موضوع تفكير حتى اخذ يطرق بابي الهادئة .
قلت محاولا ان اختصر :
ـ فكانت الاستجابة ...
نظرت الي نظرة عتاب ، واكتفت بالنظرة العابرة

من الكلام وهي تضيف :
ـ عبرت عن رفضي التام بكل وسائل التعبير . فكانت في نظرهم عاصية شاذة ... وبدأ الهجوم على الضحية من كل جانب .
تعاطفت نظريا مع الهاجمين فقلت في تلقائية :
ـ طبعا كلهم يحبون أن تخرجي من عزلتك ...
ـ يريدونني ان اخرج من جنتي ...
ـ حواء لم تجد صعوبة في الاقتناع بالخروج منها
ـ كانت ساذجة ، بسيطة ، قليلة التجربة . خرجت تبحث عن التجربة التي لم تعرفها من قبل . وكان الشيطان مخرجها .. اليس كذلك ... ؟
ـ اما انت ؟
ـ عدت الى الجنة بعد ان اجتزت مرحلة التجربة ولكن ...
صمتت آهة مريرة وهي تستدرك :
ـ يظهر اننا في مزيد الحاجة الى المزيد من التجارب ...
وعاد الصمت يطبع ما بيننا من مسافة قصيرة ، وكأنها تستعيد واقعا او فكرة . واهتدت اخيرا فتحركت في عصبية واتجهت نحوي بكليتها وكأنها تجادل :
ـ ما نزال نحن الضحايا ، اقصد المرأة . الرجل دائما يتخذها لعبة ، لا يفكر فيها الا تحت ضغط العبث واللعب كما يفكر الطفل في العرائس .
قلت في غير حدة :
ـ بعض الرجال ...
بعد تردد اضفت :
ـ ... مع بعض النساء ...
ـ يظهر انك مثلي قليل التجربة . لا تعرف الناس على حقيقتهم . لانكم يحكم المهنة تلتقطون المظاهر والاشكال ، لا تقتحمون النفوس ولا تعرون الاشخاص من ملابسهم الرسمية ، ولا تحكمون على الاحداث الا من خلال ما تسمعون .
ـ حلمك يا سيدتي . المهنة لا تطبع اصحابها بطابع واحد ، لا تظلمينا ...
احببت ان اختصر ، اعود الى حديث حواء التي خرجت راغبة من الجنة . قلت وكأني اعود بها الى موضوع تحاول ان تهرب منه :
ـ كانت ـ غفر الله لها ـ ساذجة قليلة التجربة فلم اقتدت بها انت ...
توقفت الكلمات في فمي ، واتقدت الموقف بكلمة :
ـ ... وانا بنتها : ساذجة ، بسيطة ، قليلة التجربة ... ؟
ونظرت في وجهي بعينين مفتوحتين على ابعادهما وهي تضيف :
ـ ... لا تستغرب . لو لم اكن ساذجة لما تقلب الدين هاجموني من كل جانب .
ـ لابد ان حجمهم كانت قوية ... ؟
وضحكت في سخرية :
ـ انت تعرف حجم الشيوخ ، ولو كانوا شبابا . اكتسى صوتها لهجة التمثيل . كان يتغير في كل فقرة وكأنها تمثل حوارا اشترك فيه رجال ونساء من كل عصر :
ـ لا يجوز ان تبقى فريدة ... الشباب غير دائم ... الرجل في البيت خباء يستر العائلة ويحميها ماذا يقول الناس عنك وأنت بنت العائلة والمجد ... جمالك .. وحدتك يغريان بك المتقولين...مقامه كرئيس يعطيك اسما جديدا ... سيغرقك في النعيم ... لا قيمة للمال عنده ... فكري في المستقبل .. الحاضر سيصبح ماضيا ... اقبلي ... لا تكوني عاصية ...
صمتت قليلا ، ثم عاد صوتها الى طبيعته واستأسدت وهي تكاد تصرخ في وجهي كأني انا الذي كنت احاور :
ـ اعلنت لهم بصراحة انه يكبرني سنا . ربما كنت في سن ابنته . ولا اريد ان اربط حياتي بنصف حياة ...
ترددت قليلا وهي تضيف :
ـ انا بصراحة صغيرة السن ، على قدر من الجمال لا اطري نفسي ولكنه الواقع .
سكتت قليلا وكأنها تستعيد فصول مأساة ، ثم ارتعش صوتها وهي تضيف :
ـ صرخت في وجوههم : انه متزوج وله أولاد..
وانا لا احب ان اكون احدى بناته ...
طفرت دمعتان حارتان من عينيها رغم الشجاعة التي تحلت بها منذ طرقت باب المكتب ، واضافت :
ـ ... وكان هناك قلب متحجر ، رغم ما يكن لي من حب ، فواجهني : وانت ايضا كنت متزوجة ، ولك طفلان ...
شعرت بنوع من الندم فاستردت شجاعتها ، تبخر الدمع من عينيها تاركا سحابة حمراء تختلط بالخضرة الزرقاء ، وقالت وكأنها تدفع الهزيمة عن نفسها :
ـ ومع ذلك رفضت ...
تنفست الصعداء فقد احست بأن نهاية القصة كانت سعيدة وان السيدة سليمى ستربح اعصابي من توتر لم أتوقعه وهي تدخل مكتبي على غير موعد
وعاد ما بيننا من مسافة يغرق في صمت هادىء، حتى رفعت وجهها متحدية مرة اخرى :
ـ لم يكن ليتهزم ، فقد اعتاد ان يصدر الاحكام، ولم يصدر ضده حكم . كان رفضي بمثابة

حكم اعتبره قاسيا .

اتجهت الي مخاطبة :

ـ انت لا تعرفه ... ؟

لم تنتظر ان أجيب ، ولكنها اضافت :

ـ ... عنود ... اناني ... ملحاح ..

عدت الى حيادي المطلق . وهي تستأنف حديثها السابق .

ـ كان ، طبعا ككل الرجال ، (رمقتني بنظرة امتدار) قادرا على ان يفرق كل حجج بحيثيات الاقناع التي يتقنها .

اخذ صوتها مرة أخرى يكسي طابع التمثيل ، وتتغير لهجتها عند كل فقرة :

ـ الرجل لا يكبر ... حياته مع الزوجة السابقة ستبقى شكلية ... أولاده كبروا وسيشقون طريقهم في الحياة ... لن تكون لك صلة بهذا الماضي ...

عاد الصمت يطبق على المكتب . عادت عيناها تبحثان عن شيء بين الخيوط الحمراء في السجادة التي لمعت حمرتها في الغرفة . والشمس تجلل جانبا منها بضيائها الباهر . اكتسى المكتب طابع مسرح تفنن المخرج في توزيع الاضواء على خشبته ، في اعداد الجو النفسي عن طريق الاضواء الملتهبة ليساعد الممثلة الوحيدة على التلبس بدورها .

عادت من جولتها الفكرية الطويلة وكأنني كنت اقدر ابعادها ، واكتسى صوتها طابع الاسى الحزين ، انخفض حتى لكأنني كنت اجد صعوبة في تبين مقولته :

ـ واخيرا قبلت ... تزوجته ...

انزاح عن كتفي عبء ثقيل . فقد كنت كطفل يريد ان يعرف نتيجة قصة سينمائية تقوم على صراع حاد بين البطل والبطلة . البطل دائما ينتصر ، ولكن الاطفال عادة يريدون ان يعرفوا السبيل الى انتصاره . وقد كان البطل هنا حرنا قويا عنيفا ملحاحا كما ادركت البطلة ، وكانت هي عنيدة معتزة بجمالها وشخصيتها . ولكنها طبيعة القصص السينمائية التي تؤلف لتعبر عن رغبة المشاهدين لا لتصور حقيقة او واقعا او ما كان يجب ان يكون حقيقة .

وانتظرت ان تقول :

ـ هذه قصتي فاعمل بها ما تريد .. اورفوار..

وضعت سليمى يدها على حقيبتها الانيقة ، كانت تضعها على جانب من المكتب ، وبدأت التحرك في جلستي واستعد لأمد يدي مودعا . فقد كنت مخلصا لطبيعة الحياد التي سادت علاقتي بالقصة منذ البداية . كان علي ان اقول لها :

ـ مبروك ... حياة سعيدة ...

ولكني لا ادري كيف احجمت عن هذه التهنئة العادية . لم تنهض كما كنت اتوقع ، ولكنها فتحت حقيبتها ولعبت الاصابع الرشيقة في عب الحقيبة ،وكأنها تبحث عن شيء غير ضائع . علبة دخان امتدت بها يمناها الى يسراها ، وانجرت سلسلة خرجت من بينها ولاعة ذهبية . انشغلت سليمى عني كأنها وحدها في المكتب ، واخرجت دخينة وضعتها على الجانب الايمن من شفتيها ، وبحركة تلقائية اتقدحت « الولاعة » وهي تقترب من الدخينة فتنير وجهها بلهب ارجواني . شدت بعمق نفسا قويا ، انتفخت شفتاها عن غمامة هفافة من دخان ناعم لم تنفثه شفتاها الى بعيد ، وانما جلل وجهها بضبابية ، كما لو كانت سحابة خفيفة تحاول ان تستر ضياء القمر في لألائه . ضبابية لم تخف ملامح الوجه الجميل فربما زادته اشراقا ، ولكنها غيبت ما تفكر فيه ، ما تريد ان تقول ، غيبت كلماتها الاخيرة:

ـ واخيرا قبلت ... تزوجته ...

وكأنها تريد ان تضيف :

ـ عدت الى الدخينة ...

كانت عيناها متجهتان الى النافذة ، وكأنهما لا تريان . عادت فسحبت نفسا عميقا من دخينتها ، نفثته هذه المرة في عنف وعصبية اتجهت نحوي ـ في ابتسامة مصطنعة ـ وكأنها تذكرت شيئا مهما نسيته :

ـ استأذن ... الا يضايقك ان ادخن ... ؟

لم تكن تنتظر مني جوابا . ولم أكن ادري كيف اجيب ، ولذلك ابتسمت في مغوبة وانا افكر ان الجلسة ما تزال طويلة ، وكان علي ان اقول شيئا :

ـ لا ادخن ، ولذلك تجدينني بخيلا في تقديم الدخان .

ابتسمت واصابعها تدلف الى شفتيها بالدخينة عادت فجأة تقول :

ـ كان حريصا على ان يتم كل شيء في اسرع وقت.. كتبنا العقد ، وكان مبلغ المهر سخيا في الورقة الرسمية واصبحنا زوجين منذ ساعة اتخاذ القرار . اختصر ، فقد انتقلنا الى مدينة صغيرة جميلة لقضاء ايام العسل اغدق علي كثيرا من الهدايا . كان مثال النبل ولطف المعاشرة . لم ار منه غير الوجه البشوش . اخذت احس بالسعادة . انزاح عني كابوس الوحدة . عادت الي كل معنوياتي في اني امرأة . اكتشفت انوثتي من جديد ... سمعت كلمات الحب والغزل ... احببت اني كنت في حاجة الى ان اسمعها . المرأة وحدها لم تكن كافية ، كنت اخشى الا تكون صادقة ... اختفت كل مخاوفي : كبير السن ، متزوج ، له اولاد ... عاد امامي طفلا مدللا يتلذذ بالاستعطاف والتحبب وهو يحقق رغباته . اختصر : لا استطيع ان اصف لك السعادة التي عشت فيها كزوجة لزوج ما كنت لاتمنى غيره ...

قلت وكأني اكتشفت تناقضا غريبا في هذا النموذج الذي اقتحم علي وحدتي مع العمل :

ـ سعادة غيرت نظرتك الى الجنة ... ؟

ونظرت الي كما تنظر الى شخص لم يفهمك :

ـ لكنها اقنعتني بأني كنت في الجنة .
لم افهم . ولكني الفت اسلوبها في الحديث فما
نزال للقصة بقية :
ـ تستعجل اذن النهاية : اسبوعان من شهر
العسل ، خيل الي انهما سنتان . كنت اعجب
فيهما من متع الحياة ...
وساد الصمت من جديد . وعادت دخينة جديدة
تقتعد على شفتيها ، وعادت الشعلة الارجوانية تنشر
ظلالها على الوجه الذي جللته مسحة من الاسى ، من
الالم . وشدت نفسها العميق لتنفثه هذه المرة في عمق.
قالت ونفثات الدخان تخالط كلماتها :
ـ وكان صباح ، لم يختلف عن كل الصباح
التي عرفتها حياتنا طوال اسبوعين . ارتدى
ثيابه وانا في شغل بزينتي . اقترب مني من
وراء وهو ينظر في المرآة يلهف وضع على كتفي
يدين قويتين . انحنى ...
توقفت قليلا وهي تعتذر :
ـ اعذرني اذا قصصت عليك هذه التفاصيل .
ربما كانت تافهة ، ولكنها ذات دلالة ...
ثم استانفت :
ـ ... قبلني في عنقي وهو يتشمم رائحة عطر
كان قد اهداه الي ...
قال في صوت خافت :
ـ اظن انك ستاذنين ... ؟
رفعت اليه راسي ، وكانني اطلب المزيد ...
ابتسمت في وجهه . قلت في تلقائية :
ـ وهل انت في حاجة الى ان تستاذن ؟
اجاب بابتسامة عذبة :
ـ هذه المرة انا في حاجة الى ان استاذن ...
نظرت اليه من خلال المرآة مستفهمة ، فاستمر
كانه يجيب :
ـ سانهب عنك يوما او يومين لي شغل سيصرفني
عنك بالرغم عني .
قمت من مكاني مبتسمة . واجهته في عطف ،
وضعت كفي على كتفيه ، قلت في صوت هامس :
ـ ذلك واجبك .. وواجبي انا ايضا . فلا احب
ان يحرم عملك منك . ارتسمت مسحة من
السعادة على وجهه ، وهو يقول :
ـ لا اعرف كيف اشكرك . ولكني اخشى ان
تشعري بالوحدة ...
ـ سامود الى منزل العائلة في انتظارك .
وضحكت من اعماق قلبي وانا اضيف :
ـ ... كانهم نسوني ... لم يسألوا عني قط
منذ تزوجنا ...
ـ لم يسألون وهم على يقين بانك في سعادة ؟
اضاف وكانه تذكر شيئا :
ـ ساسافر وانا مطمئن حينما اعرف انك مع
العائلة ، مع الطفلين
كان صوتها وهي تروي هذا الجزء من القصة
يطفح بالاثارة والرقة . كان كصوت ممثلة تعيش دورها
بكل عواطفها وانفعالاتها . حتى صوت البطل وهي تروي
عنه كان هادئا ناعما يكاد يتخلص من رجولته . وفجاة
تهدج صوتها وهي تضيف :
ـ ... وافترقنا ...
قالتها وانحبس الصوت في نعومته وتهدجه .
وعاد الصمت ليخيم على جو المكتب ، وتسمرت عيناي
على وجهها في فضول ، وانا احاول ان اكتشف ما وراء
الملامح التي تجمدت . بدا عليها انها تغالب شيئا في
عينيها كشفت عنه حمرة خفيفة شابت حورهما .
استعبرت كانما لتروي حدثا عاديا وهي تكتم انفاس
عقب دخينة ما يزال ينبض بحياة بين اصبعيها :
ـ ... وصباح الغد فتحت عيني على برقية
تخبرني ان ورقة طلاقي موجودة عند العدل
السيد الحسن .
مدت يدها الى البرقية وهي تضيف :
ـ كان مكتوبا في الورقة : طلاق قبل الدخول ..

ـ الرباط ـ